

هوية الرأي وأنصار الحمود

تصل إلى «المعرفة» رسائل متعددة ، وشكاوى متباينة ، ليس إلى جمعها في نقطة واحدة من سبيل . فهذه الرسائل أو تلك الشكاوى بمعنى أصح ، لا تتفق في مصدر الشكاوى أو تلتئم في الباعث عليها مطلقاً ، كما أن عقدها لا ينتظم بحال ما في سمط واحد من التفكير . على أن أشخاص مرسلها على تعددهم وتباينهم ، لا يعدو الواحد منهم أحد شخصين : شخص يتهمنا بالحمود في الرأي ، والتعصب للدين ، والتمسك بالقديم ؛ وليس لنا أن نناقش هؤلاء بعد أن كتبنا «كلمة المحرر» التي افتتحنا بها الجزء الأول من هذه المجلة ، وشرحنا بها كل الأغراض التي أسست لأجلها ؛ كما أنه ليس من حاجة أيضاً لمناقشتهم مرة ثانية ، بعد أن رأوا الأجزاء التي صدرت قبل هذا الجزء وعددها أربعة كفيل في نظرنا - على ما نعتقد - برد ما يوجه إلينا من تهمة الحمود ، والتعصب ، والتمسك بالقديم ، وما أظنني - بعد أن أفسح صدر المجلة لكل رأى مخالف لنا - بجأمد أو متعصب كما يزعمون .

على أن المضحك في الأمر حقاً ، هو أن تجد إلى جانب هؤلاء فئة من الناس تتهمنا بالمغالة في الجديده وهذه يترجمها بعض السوريين الدخلاء ، وآسف أن أقول السوريين الدخلاء ، لا السوريين الحقيقيين الذين أحبهم وأجلهم ، وأرى كمصرى مفروض فيه العمل لخدمة وطنه ، أن يعمل معهم ومع كل شرقي بقدر الطاقة ، وبقدر ما يسعه جهده الضئيل في سبيل «الرابطه الشرقيه» و«الوحدة العربية» إذ بغيرهما معاً ، أو بغير احدهما على الأقل لا يتم لمصر ما ترجو من زعامة حقة ونهضة قوية .

أتعرف ماذا يقول هؤلاء الأناسي ؟ يزعم أولئك الدخلاء ، ومن لف لفهم من مواطني المصريين ، في غير حق ولا رحمة ، أن مجلة «المعرفة» تعمل دائبة على نشر الآراء الصوفية المتطرفة والبدع الدينية والأفكار الفلسفية الاحادية .

يا سبحان الله ؟ ألكم بعد هذا عقول تفهم حتى نستطيع مخاطبتكم ؟ إن كان ذلك ، ولا أظنه ، فلتعلموا إذن أنكم لا تؤثرن في طفل صغير فضلاً عن انسان مفكر ، فما بالكم والمجلة في أيدي القراء المختلني المشارب والآراء ؟ أهؤلاء أقل منكم فهماً وتدبراً ؟ ثقوا بأنكم تعلنون عن «المعرفة» أقوى إعلان ، فأكثروا أكثروا ، فأنا في حاجة إلى شيء

من هذا ليس بالقليل ، وأنتم دهاقنة الزمن في استلاب الأموال ، والتفنن في الاعلان عما تعملون باسم الدين ظلماً ، ألا بارك الله فيكم تعملون على نشر مجلتنا ، ولا بارك الله فيكم تعملون على نشر الكذب والبهتان . على أنا لن نقيم لكم بعد الآن وزناً ، وبحسبنا أن نأخذ فيما نحن بصدد من البحث في حرية الرأي ، لعلكم تتعظون .

في طبيعة الانسان من يوم وجد رزقه وثابة إلى الأفضاء بما يجتهد في ذهنه من فكرة . هذه الفكرة ، هي عمل من عمل العقل الذي هو بصيص من نور الله محال أن تقف في وجهها قوة من قوى الطبيعة على اختلاف درجاتها وتباين أنواعها .

قد تكون الفكرة مما تأباه أنظمة الدولة ، أو مما يخالف التقاليد الموروثة ، أو تباين العرف المتبع ، لكن ليس معنى هذا أن الفكرة تقهر وتموت ، بل تجس في نفس صاحبها ، وتظل مضغوطة عليها تحت طبقات ذهنه ، تحاول الخروج آناً ، والافتلات آونة . حتى تجد لها منفذاً ، ويجد صاحبها الفرصة صالحة لاعلانها ، فتنتطلق انطلاق السهم .

هنا تعمل الفكرة عملها ، وتحتل من النفوس ملائمتها ، ومن ثم تخلق من أصحاب تلك النفوس أنصارها ، يدافعون عنها ويستشهدون - ولو كانت خطأ - في سبيلها . والزمن وحده هو الكفيل بالحكم على صلاحها أو عدمها ، وتقرير بقائها أو وجودها . وذلك يخالف كل المخالفة الفكرة المباحة غير الصارخة ، فإن نجاحها يتوقف على ما لقيمتها من صواب فحسب . وغريب جداً أن نرى جل الفكر الثائرة ، وأعني بها تلك المخالفة للعرف ، أو المغايرة للتقاليد يقدر لها البقاء وينقل أصحابها من سجل الفناء الى سجل الخلود .

دليلنا على ذلك ، ما نراه من الخلود الملازم للفكرة الدينية التي نستطيع أن نسمي أصحابها ودعاتها - بحق - ثوار الفكر قبل إعلان فكرتهم - قادته - بعد نجاح تلك الفكرة . أليس الأنبياء (صلوات الله عليهم) كانوا ثواراً على تقاليد ذويهم وأممهم وهدامين لمعتقدات آليهم وأفكار بيئاتهم ، فلما أن تحققت ثوراتهم الفكرية ، وصحت دعاواهم الدينية ، صاروا قادة الفكر في نظر العالم اجمع ؟؟؟ أو ليست هذه غاية الخلود ؟

أولئك الذين قدر لأسمائهم أن تسجل في سجل الخلود على مر الحقب وتوالى العصر ، هم بأنفسهم الذين كانوا يرمون بالكفر آناً وبالزندقة آناً آخر ، وهم بأنفسهم من كانوا موضع اضطهاد مغايرهم بل واحتقار المجتمع كله لهم ، لا لشيء سوى ثورتهم على القديم . وها هم بأنفسهم الآن مصابيح النور الالهى .

لنخرج عن دائرة الأنبياء ولنستمع للتاريخ الذى يحدثنا عن كثير من الأفراد راحوا ضحية الحرية الفكرية . . . حيث أعدم من أعدم ، وأحرق من أحرق ، وعذب من عذب ، كل ذلك فى سبيل القضاء على أفكارهم التى أبت الاذعان والارتضاء بغير الزمن حكماً ، والذى أراد الزمن إلا إنصاف محتكميه على خصومهم فى أغلب الأحيان .

هذا سقراط الفيلسوف اليونانى العظيم ، قدم للمحاكمة أمام مجلس أثينا الأعلى بحيرة الخروج على الناموس ، ومخالفة التقاليد الوراثة ، ما كانت جريمته فى الحقيقة سوى بث تعاليمه الشريفة فى نفوس تلاميذه الاطهار ، كان نصيبه بسببها الحكم عليه بتجرع السم بين أولئك التلاميذ ، لكنه مات مرتاح الضمير هادئ النفس يدلك على ذلك قوله وهو يدافع عن نفسه أمام مجلس الاتهام .

« إن إنساناً بالغاً ما بلغ من القوة ، لا يستطيع بحال ما أن يملئ إرادته على آخر أو يمنع الايمان بما يعتقد والتفكير كما يود . إذا كان الانسان متمشياً مع منطق عقله مستمعاً لنداء ضميره فانه يستطيع أن يعيش فى عزلة منفردة فى غير حاجة الى رضاء الناس أو المجتمع ، ولن يصل الانسان لنتائج صحيحة مطلقاً ما لم يفحص المسائل ما لها وما عليها ، ولذا فانه يجب على الحكومة ألا تتدخل فى مناقشات الناس بعضهم مع بعض » .

تلك بعض أقوال سقراط التى أثرت فى نفوس أعضاء المجلس لدرجة أن ساوموه على الترضية بالتسوية بينه وبين مخالفه اذا هو وعدهم - على الأقل - بالكف عن نشر تلك التعاليم . لكنه أبى إلا أن يكون حراً فقال :

« كلا . دعوى وضميرى الذى ينادىنى من أعماق نفسى ، لألقن الناس طريق الحكمة والمعرفة الصحيحة ، وما دامت هذه هى بغية ضميرى ، فسأظل أعلم الناس مصرحاً بما فى نفسى دون أن أقيم وزناً لما يحدث »

وهاك مثلاً آخر . فهذا جاليليه العالم الايطالى الفلكى الذى أخرج كتاباً يشرح فيه نظرية حركة الارض حول الشمس ، فانه قدم بسبب ذلك الكتاب الى مجلس الكنيسة الاعلى متهماً من الكراذلة بالهرطقة (أى الكفر) وكانت نتيجة محاكمته أن اضطره المجلس إلى الاعتراف بالخطأ أمام الكنيسة وعلى ملاء من تلاميذه وأتباعه ، لكنه ما لبث أن خرج من الكنيسة حتى قال « ولكن الأرض تدور » فكان

أن قبضوا عليه في الحال ، وزجوا به في السجن (برواية بعض المؤرخين) ، وأحرقت جثته (برواية آخرين) .

لكن هل هذا السم الذي تجرعه سقراط ، أو ذلك العقاب الذي نزل بغاليليه أمت الفكرة أو منع انتشارها ، أو حرم كليهما شرف الخلود ؟ كلا ، لقد كان ذلك الاضطهاد سبباً لاستشهاد الكثيرين في سبيل الدفاع عن الفكرة ، حتى أصبحنا نرى تعاليم سقراط تعلم في أكبر الجامعات ، وكذلك قل عن تعاليم غاليليه التي أصبح رجال الدين أنفسهم يتخذون منها ومن كلمته (ولكن الأرض تدور) رداً على مخالفتهم . أليس هذا هو الخلود بعينه ؟ لست أريد من كل ما تقدم ، سوى القول بأن خير حكم يفصل في فكرة ما إنما هو الزمن وحده ، وإذن فالفكرة لا تموت بموت صاحبها ، بل ثمة من يقوم بعده لنصرتها فإذا ما استشهد في سبيلها فثم آخر ، وثمة آخرون وهكذا .

وبذلك تظل الفكرة حية نامية يساعدها مبدؤها المكفول لها بما في الانسان من نزعة التوثب الى الحق . ولا تستطيع قوة ما — بالغة ما بلغت — أن تقضى بالجمود عليها بل إن سنن الكون لتجتاح تلك القوة اجتياحاً ، وتأتى عليها حتى لا تبقى ولا تذر ، متمشية مع سنة التطور بخطوات سريعة مترنة ، ولذلك فانها تسخر أمثال أولئك القادة ليرفعوا صوت الحق قائدين أمهم الى طريق الصواب ومخلصيهم من بين برائن الجهل والآنحطاط والتقهقر .

وفي المثليين السابقين — ومن أمثالهما كثير — دلالة واضحة على صدق ما نقول ، ولكننا نريد أن ننبه القارئ الى أن هذا الاضطهاد كان يحدث في العصور المظلمة ، التي كانت الكلمة الواحدة فيها ، كافية لأزهاق أرواح الآلاف بله الملايين .

أما الآن وقد سار الزمن الى الرقي ، فقد أصبحنا نرى الرجل — وعلى الأخص في الأمم المتحضرة — يقول قائله وهو محقون الدم ، آمن على نفسه وعياله ، مرتاح الى مخالفته في الرأي ومباينيه في المعتقد . وها نحن نرى الآن اعترافاً بقدسية العقل ، وإطلاقاً للحرية بلا قيد ولا شرط ، حتى لتكاد تنقلب في بعض الأحيان الى غير ما وضعت له .

ولست بهذا أدعو إلى إطلاق الحرية بلا قيد ولا شرط ، بل لست أطمع في هذه الحرية بلا قيد ولا شرط ، وإنما أريد أقل من هذه بكثير جداً ، أريد كما يريد كل مخلص لدينه

ووطنه - أن تكون حرية البحث العلمى ، مما لا تسبب لصاحب البحث ردى فئة من الناس له بالكفر والزندقة ، وديننا يأمرنا باتباع العقل وتأويل النقل على مقتضاه إذا ما تعارض العقل والشرع .

نريد ألا يستغل نفر من الناس حداثة فكرة من الفكر ، أو يستثمر جدة بحث من البحوث ، لقضاء أغراض ذاتية ، تملها عليهم رؤوس تدور مع الريح أينما تهب .

نريد ألا تعتدى طائفة من الناس تفرض ولايتها على الدين ظالماً . وأقول طائفة ، بل طائفة صغيرة جداً ، فإن أكثر علمائنا والله الحمد ذوو حكمة وتدبير ، وأصحاب عقول راجحة التفكير . وانما أقصد نفرًا قليلاً لا بد من وجوده ، ليميز الصالح من الطالح ، ويعرف الطيب من الخبيث ، فبضدها تتميز الأشياء .

وأقصد طائفة أخرى ، تلك طائفة المتمشيعين من المتصوفة (لا الصوفية) وهؤلاء لا يقلون عن أولاء جرماً ونكراً ، ونحن نريد أن لا تريدانا على أن تفكروا بعقولهم هم لا بعقولنا نحن ، ونأخذ بظنون أوهامهم ، والله تعالى يقول وقوله الحق « إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » والله جل شأنه يكرر لنا المعنى فى آية أخرى من محكم آيه فيقول : (وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ، وإن الظن لا يبنى من الحق شيئاً) .

نريد ألا تعتدى هاتان الطائفتان على أسنى المظاهر الانسانية ، أو يجترحا أقدس الكائنات الالهية ، وأعنى به العقل الذى ميزنا به صاحب العقل المطلق على جميع مخلوقاته ، والذى به وحده نحاسب ، وعلى قدر تمييزه بين الحق والضلال ثواب أو عقاب .

نريد أن نسير إلى الأمام بخطى سريعة متزنة ثابتة ، وأن نستيقظ من هذا السبات الطويل الذى كاد يكون اغماء ، ونصحو من هذا النوم الثقيل الذى قارب أن يكون موتاً زوأمًا ، ونمسح من أعيننا ذلك النعاس العميق ، لننظر ما احتواه ذلك العالم الجديد ، ولنحذو حذو هاتيك الأمم التى بدلت الأرض غير الأرض ، وركبت متن السماء بطائرات الهواء ، حتى لكأنها تبحث عن فضاء أوسع من هذا الفضاء .

نريد أن نسابق الغربيين الذين أخضعوا العالم ، وأنطقوا الجمادات ، واستولوا على قوى الطبيعة ، فقرّبوا بين الماء والنار وولدوها البخار والكهرباء .

ولن يكون هذا إلا بترك التخيل والتشهى ، والصدوف عن الترجى والتنى ، لتعيد الروح

الى جسم هذه الأمة الاسلامية المتقطعة الأوصال ، التي نخرها سوس البدع والضلالات . ولنجدد في جسمها غدد الحياة بامدادها بالدم النقي الصالح ، ولن يكون هذا إلا باجتثاث الخبيث من أوضاعها ؛ وإذن فلنتخلص من تلك الخرافات التي قضت أو كادت تقضي عل الدين وأهله ، لولا كلمة من ربك ، ولنزرع الأرحام من نفوسنا فلا ندع لها جانباً تحتله منا وتتسلط به علينا ، فنصبح أسراعدا ، ونضحى بين الأمم أشلاءها .

فلنرجع الى أصول الدين الحقيقية التي تتفق والقطرة ، ولنعد الى أحضان الدين الذي يقول ربه « وإذا سألك عبادى عنى فالى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى »

ولندع أولئك المتمشيعين من فتنى العلماء والمتصوفة إلى الحق ، فان قبلوا النصيحة فيها ونعمت ، وإن أبوا الا أن يظلموا منافقين مرآئين مخادعين الناس ، فإهم بخادعين الله وما يخدعون الا أنفسهم ، ولن ينصرهم الله أو يأخذ بأيديهم ، ماداموا مضللين يرون المنكر يرتكب تحت أبصارهم وبين أسماعهم وهم منكشون ، وفي جلودهم لا يتحركون .

رحم الله الشيخ محمداً عبده الذى لقي من بعضهم كل عنت واضطهاد ، والذى لم يكفهم غير رميه بالكفر والزندقة ، ثم عادوا الى صوابهم بعد موته ، فلقبوه بحق — الاستاذ الامام — وهو نفسه الذى وصفهم بقوله :

« أما ما نسمعه حواننا من سجن من قال بقول السلف ، فليس الحامل عليه التمسك بالدين ؛ فان حملة العلم إنما حركهم الحسد لا النيرة . وأما صدور الامر بالسجن فهو من مقتضيات السياسة والخوف من خروج فكر واحد عن حبس التقليد ، فتنشر عدواه فيتنبيه غافل آخر ويتبعه ثالث . ثم ربما تسرى العدوى من الدين الى غير الدين — الى آخر ما يكون من حرية الفكر ، يعوذون بالله منها » .

وأخيراً لا أود أن أسترسل فى الاستشهاد وحسبى أن أقرر بأنه لم يكن ليقضى على الدين وأهله ، أو يكاد يقضى عليه سوى تلك الخرافات المنتشرة التي راجت بين عامة أتباعه . ولم يؤثر فيه غير هاتيك الأساطير التي أدخلها أعداؤه ، وما عسره وجعله بغيضاً الى بعض النفوس ، غير جمود بعض العلماء وأخذهم بالاسرائيليات وغرامهم بالمعقد من الشروحات ، ورميهم لكل مفكر بالزندقة والحاد . فهل آن لنا أن نتيقظ ؟ وهل آن لهؤلاء الذين يحاربوننا أن يتعظوا ؟ علم ذلك عند ربى ؟

عبد العزيز الاسلامبولى